بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء السادس والعشرون

سور
الأحقاف - محمد - الفتح
الحجرات - ق

وسورة الذاريات
من بدايتها حتى الآية ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) ﴾

﴿ حمٓ ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة. هذه هى السورة السابعة والأخيرة التى تبدأ بـ ﴿ حمٓ ﴾ وتبدأ كلٌّ منها بالتأكيد على أن هذا الكتاب من عند الله ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ نَزَّل الله القرآن، فهو ليس من تأليف بشر كما ادعى بعض المكذبين ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ واهب العزة والحكمة ومانعهما ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ كذلك تكرر السورة وتؤكد: ما خلق الله السماوات والأرض باطلاً، بل خلقهما بالحق، لإقامة الحق، سخرهما للإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض ليقيم الحق بعبادة الله، وخلق السماوات والأرض لتشهد له بالوحدانية وتسجد له وتسبحه ـ ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور: ٤١] ـ ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ينتهى

(*) إلا الآيات ١٠، ١٥، ٣٥ فمدنية.

عنده عالم السماوات والأرض الذى نعرفه، وتأتى الساعة ويوم الحساب، والكافرون معرضون عن إنذارهم بأن يرجعوا لله خالقهم. أخبرونى عن الذين عبدتموهم من دون الله ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ فإذا نفيتم أنهم خلقوا شيئًا فى الأرض، فهل هم شركاء فى خلق السماوات؟ هل لديكم كتاب قبل القرآن يخبركم بذلك؟ أو لكم أى آثار من علم يقول بذلك؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهل هناك من هو أضل ﴿مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فمن يدعون من دون الله ﴿غَافِلُونَ﴾ عن عبادتهم.

***

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾

ويوم الحشر، يتبرأ المعبودون ممن عبدوهم، ويعادونهم فيما قالوا وفيما يقولون، وعندما كانت آياتنا تتلى على المشركين فى الدنيا كانوا يقولون عن رسالة الحق التى أتى بها محمد ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأى سحر فى أن يدعو الناس لعبادة الواحد الأحد؟! وأن يقول لهم إن الناس متساوون، لا يفضل أحد على أحد إلا بالتقوى؟ وأن الناس مبعوثون ليوم الحساب فلا يظلم أحد نفسه ولا يظلم الآخرين؟ بل يقولون إن هذا القرآن اختلقه ولفقه محمد، قل لهم يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لن تملكوا أن تردوا عقاب الله عنى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ والله أعلم بما تندفعون فيه طعنًا وتكذيبًا ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يكفينى أن الله شاهد بينى وبينكم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن رجع إليه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالخلق أجمعين ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ما كنت فريدًا فيما جئتكم به، فقد سبق أن أرسل الله الرسل بما بعثت به من الدعوة إلى التوحيد الخالص والعمل الصالح ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ فأنا بشر مثلكم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما أفعل إلا أن أتبع ما يوحى الله إلى، وما أنا إلا نذير لكم بما أرسلنى الله إليكم بآياته البينات.

***

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

تدبروا فى أنفسكم : إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به ماذا سيكون عاقبة أمركم؟ وفى أثناء تدبركم فكروا فيما أمركم به : تطيعون خالقكم وحده، وتعملون الصالحات على أسس المساواة بين الناس، فالناس إخوة، كلهم لآدم وآدم من تراب، وتعملون حسابًا لأن تبعثوا من الموت، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره. قال محمد الغزالى : [ليس لأهل مكة عذر فى إنكار النبوات، فإن اليهود فى المدينة يتبعون موسى كما يزعمون، وصالحو اليهود استيقنوا من رسالة محمد، فلا مساغ لإنكار الوحى جملة، ولا لإنكاره على محمد خاصة] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المتكبرين الجاحدين المعرضين عن الحق ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وقال الكافرون لو كان هذا القرآن خيرًا لما سبقنا إلى الإيمان به أولئك الذين ليسوا من وجهاء القوم ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ كذب مروى فى أساطير الأولين ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن ومثله ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ قدوة ورحمة ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ ﴾ لما فى التوراة من دعوة إلى التوحيد وعمل الصالحات كبقية الكتب السماوية ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ لتفقهوا ما فيه ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بما ينتظرهم من العذاب ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ ويبشر الذين يحسنون العمل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ شهدوا بأن الله خالقهم وربهم، أى شهدوا بالوحدانية فى الألوهية والربوبية ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فى سبيل الله بالأعمال الصالحة ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

* * *

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

وصى الله الإنسان بالإحسان إلى والديه ثم خص الأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ بمشقة ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ بمشقة وآلام الوضع ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ ثلاثون شهرًا من المشقة(١) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ حين اكتمال القوة العقلية والبدنية ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ ألهمني وأعني على ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ بنعمة الإيمان ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ بحولك وقوتك يارب العالمين ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أعن ذريتي على الصلاح ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من كل ذنوبي ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وجهي لك يارب العالمين، وأشهدك أني من الموحدين. أولئك الذين يشكرون الله ويحمدونه، والذين يسلمون وجوههم له، ويسعون إليه ليعينهم على عمل الصالحات هم وذرياتهم ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ويجعلهم الله ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ وعدًا من الله، ومن أصدق من الله قيلاً.

* * *

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾

(١) استنتج على ـ كرم الله وجهه ـ من هذه الآية أن الحمل يمكن أن يكون ستة أشهر؛ لأن الفصال يمكن أن يكون عامين، وبذلك برَّأ زوجة اتُّهمت بالزنا.

﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ مكذبًا وجاحدًا ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا تَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أتعداننى بالخروج من القبر للحساب ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ وقد مضت الأمم السابقة ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ يستجيران بالله ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ هلكت إن لم تؤمن، لحثه على الإيمان ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والحساب ﴿ حَقٌّ ﴾ فيقول مصرّا ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ هذا الابن الكافر وأمثاله هم ﴿ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ حق وصدق عليهم كلمة العذاب ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم ﴾ فى أمم سابقة ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ خسروا خسرانًا مبينًا ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ لكلٍّ من المؤمنين والكفار درجات ومراتب عليا وسفلى تبعًا لأعمالهم فى الدنيا ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ يوم يضع الله الموازين الحق للحساب الحق والعدل ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ يوم يقال للذين كفروا توبيخًا وتقريعًا: لقد أضعتم طيباتكم فى الدنيا واستنفذتموها، ولكم اليوم عذاب الهون ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

***

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ يا محمد ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ النبى هود (ﷺ) الذى أنذر قومه ﴿ بِالأَحْقَافِ ﴾ والمراد بها منازل عاد باليمن ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وقد سبق أن أرسل الله من قبله ومن بعده، فهو رسول فى سلسلة طويلة انتهت بمحمد خاتم النبيين (ﷺ) ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولكنهم أجابوه مستنكرين ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ لتصرفنا بالكذب عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهكذا دائمًا كانت استجابة المتكبرين الجاحدين، ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين! تارة يقولونها

تحديًا، وتارة استهزاءً وسخرية، فأجابهم هود ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ إن ميعاد إنزال العذاب لا يعرفه إلا الله ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من وعد ووعيد ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ والجهل تعنى عدم العلم، وتعنى العدوان، والذى كثيرًا ما ينتج من عدم العلم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ رأوا سحابًا عارضًا فى السماء فقالوا لغفلتهم فرحين ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ هذا سحاب يأتى إلينا بالمطر ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فدمرتهم ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ﴾ من بقاياهم ﴿إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ قائمة على عروشها ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

***

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٢٨)﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ ولقد مكنا قوم عاد فى الأرض ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ قال الزمخشرى: [﴿إِن﴾ نافية، أى فيما ما مكناكم فيه (فيما لم نمكنكم فيه)] وذلك مثل قول الطبرى من قبله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ليستخدموها فى اتباع الحق والفوز بالدنيا والآخرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾ فما نفعتهم؛ لأنهم ﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تكبرًا، وأحاط ونزل بهم العذاب جزاء استهزائهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ مثل قرى عاد وثمود وقوم لوط، ولقد ﴿صَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾ عرضنا ونوعنا الآيات لعلهم يرجعون إلى ربهم ﴿فَلَوْلا﴾ فهلاّ ﴿نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ نصرهم الذين اتخذوهم شركاء ليقربوهم لله، سواء عندما نزل بهم عذاب الاستئصال، أو يوم الحساب ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا واختفوا عنهم، وذلك ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم على الله ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

***

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾

وإذا كان بعض الإنس لم يستجب للقرآن ولا لدعوة محمد، فإن نفرًا من الجن استمع إليه واهتدى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ إذ وجهنا إليك يا محمد بعضًا من الجن ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ قال بعضهم لبعض اصغوا لتسمعوا ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ فلما فرغ محمد من القراءة ﴿ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ رجعوا إلى قومهم من الجن محذرين وداعين إلى الإيمان بالله ورسوله، ومبشرين من يؤمن بغفران الذنوب والنجاة من العذاب الأليم، ومن يرفض ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فليس بمعجز ربه بالهرب في الأرض أو الخروج من ملكه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ ينصرونه من الله ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾.

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾

أولم يعرفوا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ بهذا الإحكام والإبداع ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولم يتعب أو يجهد، وربما يتساءل أحدنا: وكيف عرفوا أن الله لم يعي بخلقهن؟ ويحتمل الجواب عدة أوجه، منها إن هذا إعلام من الله لهم أنه لم يعي بخلقهن، كما جاء ذلك في آيات أخرى، وذلك يكفي وزيادة، ووجه ثان أنه إذا تعب من خلقهن ما كانت السموات والأرض لتستمر في النظام المحكم البديع الذي تتبعه دهورًا طويلة، والله أعلم

﴿ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ كما خلقهم من عدم أول مرة ﴿ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ويوم الحساب، يُعرض الكافرون على النار ويُسألون سؤال توبيخ وتقريع ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ أليس وعد الله حقّا؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم خزنة جهنم ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ثم يأمر تعالى رسوله ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على تكبر الكفار وجحودهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وغيرهم (صلى الله عليهم وسلم أجمعين) ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أمر الله ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب يوم الحساب ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ في الدنيا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ هذا ﴿ بَلاَغٌ ﴾ قبل فوات الأوان ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فهل يهلك رب العالمين إلا العاصين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾

تباين هذه الآيات بين ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فكان جزاؤهم أن ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وبين ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فأولئك جزاؤهم أن ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ وأصلح شأنهم دنيا ودين لأن ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ كذلك يبين الله للناس أحوال الفريقين.

* * *

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ

(*) إلا الآية ١٣ فقد نزلت في طريق الهجرة.

عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾

كما أن الله لا يحب المعتدين فهو لا يحب المستُضعفين أنفسهم المذلين لها، فإذا ما اعتدى العدو على المسلمين وجب القتال حتى الموت أو الشهادة ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ فقاتلوهم كما يقاتلونكم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أى أكثرتم فيهم القتل والجرح فأضعفتموهم عن قتالكم والعدوان عليكم ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ أحكموا قيد الأسرى ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ فهذا هو حكم الإسلام فى الأسرى، إما أن تمنوا عليهم بإطلاق سراحهم، وإما أن تأخذوا منهم فدية ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ حتى تنتهى الحرب التى شنها وبدأها ضدكم العرب ومن حالفهم أو ألبهم عليكم ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أى لانتقم منهم وقضى عليهم بدون قتال ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ ليختبر إيمانكم فى القتال وطلب الشهادة فى سبيل الله ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ لن يضيع تضحياتهم بل سيوفيهم جزاءهم ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى طريق الجنة ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ويرضى نفوسهم بدخولهم ﴿ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ عرَّفهم سبيلها وماذا يعملون حتى تكون جزاءهم فى الآخرة، وعرفهم ماذا يجدون فى الجنة من نعيم ورضوان الله عليهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ هذه الآية لا تقتصر على النصر فى ميادين القتال فقط، بل هى شاملة تعم كل أوجه النشاط الإنسانى، فمن يبتغى وجه الله فى كل أعماله، يؤيده الله بنصره، وييسر له النجاح فى كل ما يعمل، ولو بعد حين، أما ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ فحزنًا وهلاكًا لهم ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ جزاء لهم؛ لأنهم ﴿ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ من دين ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أبطلها.

كثيراً ما تكلم المستشرقون فى هذه السورة، وطعنوا فى القرآن الذى يدفع الناس للقتال، والذى جعل الإسلام ينتشر بالسيف. وسياق الآيات واضح، فالمسلمون فى حالة حرب مع قريش ومن حالفها من قبائل العرب، وأصبحت دماء المسلمين حلالاً، فلا قانون ولا شرع إلا القوة. لم يبدأ المسلمون تلك الحرب ولكن فُرضت عليهم، ولذلك جاء فى الآية الرابعة ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾، وتبين الآية أن حكم الأسرى هو المن أو الفداء[1].

* * *

(١) يمكن للقارئ الرجوع للجزء الأول، هوامش صفحات: ٧٦، ٧٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١٣ ليعرف آيات الكتاب المقدس التى تشيد بقتل جميع البشر: رجال ونساء وأطفال وشيوخ، =

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أولئك المكذبون ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أمثال عاد وثمود وقوم لوط ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ ولكل من يكفر بالله ورسله لهم نفس المصير ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والكافرون لا مولى حقيقى لهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ﴾ أما الذين كفروا، فيكفيهم أنهم فى الدنيا ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ أما فى الآخرة، فإن ﴿ النَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ وكم من قرية ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ مكة ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾.

* * *

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾

أفمن رأى بينة ربه فعرفها واطمأن لها وسار على هداها، كمن اتبع هواه الذى زين له

= وحتى البهائم، فلا تترك الجيوش نسمة حية، ونضيف هنا أن ملك إسرائيل وكاهنها الأول يانوس الصدوقى من سنة ١٠٣ ق. م إلى ٧٦ ق م ذبح ٦٠٠٠ يهودى من الفريسيين بسبب اختلافهم فى طريقة التطهير بالماء فى عيد «السكوت ـ Succoth» أى عيد المظال! فقامت ثورة من الفريسيين عليه، فما كان منه إلا أن ذبح خمسين ألفًا منهم فى سنوات قليلة! «كيف أصبح يسوع مسيحيًا ـ How Jesus Became Christian» بارى ويلسون من منشورات فونيكس، لندن ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، صفحة ٣٥ تحت عنوان: الفريسيون. والمؤلف هو أستاذ الدراسات الإنسانية والدينية فى جامعة يورك، تورنتو، كندا.

التاريخ الدموى طويل وثقيل وكثيف ومستمر حتى اليوم فى اليهودية والمسيحية، ولكن غسل الإعلام الغربى والصهيونى أمخاخ العالم بفيض من الدعاية ـ الكاذبة والمضللة ـ عن دموية المسلمين وإرهابهم، وكتابهم المقدس الذى يدعو للعنف والقتل، والإجبار على الدخول فى الإسلام، بينما لم يسل العرب والمسلمون فى تاريخهم الطويل ١٪ من الدماء التى أسالتها أوروبا المسيحية منذ بدأت هيمنتها العسكرية، أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون على الأكثر، وبالطبع تحاول إسرائيل اليهودية اللحاق بأوروبا المسيحية فى ذلك التنافس، ولكن لا يساعدها عمرها القصير، وعددها القليل.

عمله السيء؟ وهل مآل المتقين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنة تجرى من تحتها الأنهار، بها ماء عذب فرات لا يتغير طعمه، وأنهار أخرى من لبن لا يفسد، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لا تذهب العقل ـ كما بينت سورة الواقعة وغيرها ـ وأنهار أخرى من عسل مصفى، ولهم كل ما تشتهى أنفسهم من الثمرات، ومغفرة من ربهم، هل يشبه كل ذلك النعيم مآل من يخلد فى النار ليشرب ماء حميمًا يقطع أمعاءهم؟

* * *

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾

﴿ وَمِنْهُم ﴾ من هؤلاء الكفار والمنافقين ﴿ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ حين تتلو القرآن أو تعلم المسلمين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ من مجلسك ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الصحابة ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ ماذا قال محمد من قبل؟ يقولون ذلك طعنًا وسخرية ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ختم عليها فلا تؤمن بسبب إصرارهم على التكبر والجحود، ولأنهم ﴿ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أما ﴿ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أما الذين اهتدوا للحق فآمنوا بالله ورسله وكتبه، فقد أنعم الله عليهم بمزيد من الهداية والفقه فى دينهم ليصبحوا من المتقين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ فماذا ينتظر أولئك المكذبون بعد البينات التى أرسلها الله لهم؟ ليس هناك إلا أن تأتيهم الساعة فجأة، وقد جاءت علاماتها، ومنها رسالة خاتم النبيين، فإذا جاءتهم فكيف يتذكرون وقد فات أوان الذكرى ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ يا محمد ومن يستمع القرآن ﴿ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فاثبت على عقيدة التوحيد أنت ومن اتبعك ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ وفى الحديث المتفق عليه أن رسول الله (ﷺ) كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى» ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وهذا من فضل الله أن أمر رسوله أن يستغفر لنا وهو مجاب الدعوة بإذن الله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾

تقلب أحوالكم فى سعيكم ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ وفى إقامتكم، والمقصود يعلم كل أحوالكم وأعمالكم وسكنكم نهاراً وليلاً.

* * *

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا ﴾ هلاّ ﴿ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ تدعو إلى القتال ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ مبينة لا تقبل تأويلاً ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أوجبت القتال فى سبيل الله ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وهم المنافقون ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ مثل الذى أغمى عليه فى سكرة الموت ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ قال ابن كثير: [كان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا]، بينما قال مخلوف: [(أولى) كلمة توعد وتهدد]، وعنده وقف بعدها، ثم تبدأ جملة جديدة مبتدؤها ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ طاعة لك وقول طيب ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ ولزم القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فلو صدَّقوا إيمانهم بالقتال فى سبيل الله لكان خيراً لهم فى الدنيا والآخرة ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ وكأن الآية تتنبأ بالمنافقين الذين سيحكمون المسلمين، بدءاً بيزيد بن معاوية، ومن تبعه بإفساد إلى يوم الدين، لعنهم الله أجمعين، وقال بعض المفسرين إن المقصود: هل إذا تركتم ما أنزل الله إليكم أفسدتم فى الأرض وقطعتم أرحكامكم؟ والمعنى الأول أرجح، إذ إن توليهم عن رسالة الإسلام يعنى رجوعهم لما كانوا عليها، والمسألة أوضح من أن يتساءل القرآن عنها بعسى! ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن سماع الحق ﴿ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ عن رؤيته.

* * *

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٢٨)

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أفلا يتفكرون في آيات القرآن ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ مغاليقها التي لا تفتح ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ عادوا إلى الكفر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ ووضح أمامهم الطريق المستقيم، هؤلاء ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين لهم وسهل لهم الردة والكفر ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ مدّ لهم في الأماني الكاذبة فخدعهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من اليهود الذين كرهوا أن تنزل الرسالة الخاتمة على غيرهم، فقال أولئك الذين ارتدوا ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ وهذا دائمًا شأن المنافقين، يترددون بين الجانبين ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ والله مطّلع على خباياهم ونواياهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ فكيف يكون حال أولئك المنافقين عندما تتوفاهم الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم. هل هذا الضرب حقيقي أم علامة شؤم لما سيلقونه يوم الحساب وما بعده؟ أم الاثنان معًا؟ الله أعلم، ذلك لأنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ لأنهم أحبوا متع الدنيا أكثر من رضوان الله ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأبطل كل ما فعلوه.

***

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾

أم يظن المنافقون أن الله لن يكشف ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم الشديدة ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لو أردنا أن نكشفهم لك لعرفناك ودللناك عليهم عيانًا بيانًا ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فلعرفتهم بعلامات نسمهم بها ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ولتعرفنهم من انحراف كلامهم عن الأسلوب المستقيم، فهم لا يستطيعون إخفاء ما بهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فلا يخفى عليه شيء، وهو محيط بهم وبكم، وسيبلوكم حتى ﴿نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ بيَّنا من قبل أن قول الله سبحانه وتعالى ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ فيه أقوال، منها حتى يعلم المؤمنون، ومنها حتى يعلم الله علم الشهادة، فهو يعلم علم الغيب، ومنها أن علم الله يعني تحقق جهاد المؤمنين وصبرهم، وعدم علمه يعني عدم جهادهم وعدم صبرهم،

ومنها حتى لا يزعم أحد أن علم الله السابق أجبره على فعل ما يفعل، والله أعلم ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ونظهر أخباركم.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وصدوا الناس عن طريق الإيمان ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ ناصبوه العداء ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فلا يملك أحد أن يضر الله ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ سيبطلها فتذهب سدى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ولا يأمر الرسول (ﷺ) إلا بطاعة الله، وهو فقط يتبع القرآن والوحى، ويبينهما للناس ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لا تضيعوها. قال الطبرى: [عن قتادة قال: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحًا بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلاّ بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسيعذبون فى الآخرة ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا أيها المسلمون عن قتال أعدائكم ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ السلم المنهى عنه هنا هو سلم الاستسلام والذل والهوان، فهناك آيات كثيرة تدعو للسلم والسلام وعدم الاعتداء ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ بالحق ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ينصركم ويقويكم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ لن ينقصكم أجر الجهاد والاستشهاد، والأجر هو النصر أو الشهادة فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة.

* * *

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ما متع الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو سريع الزوال ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ كاملة غير منقوصة ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ إنما يسألكم زكاتها وصدقتها عن طيب نفس ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ جميعها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يجهدكم ويشق عليكم حتى يجعلكم ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ تمسكوا عن الإنفاق وتظهر أحقادكم وشدة حرصكم على المال ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فى جهاد أعدائه ونصرة دينه ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ فهو يحرمها ببخله ثواب الإنفاق، وجاء فى الحديث «ما نقص مال من صدقة» رواه الترمذى ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ عن العالمين ﴿وَأَنتُمُ﴾ أيها الناس ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ لله ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ تعرضوا عن الإنفاق وعن العمل فى سبيل الله ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يهلككم ويأتى بقوم آخرين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ ولكن ينفقون فى سبيل الله، ويجاهدون فى سبيل الله، ويتبعون شرع الله.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾

خرج رسول الله (ﷺ) ومن معه من المسلمين لأداء العمرة فى السنة السادسة من الهجرة، وساق معه الهدى ونزل بالحديبية بالقرب من مكة، وأرسل لزعماء قريش أنه ما جاء إلاّ للاعتمار ولم يأت لقتال، ولكن أخباراً وصلت إلى رسول الله (ﷺ) أنهم قتلوا عثمان (رضي الله عنه) الذى أرسله (ﷺ) لإبلاغ قريش بأنهم إنما جاءوا معتمرين مسالمين. فأخذ رسول الله (ﷺ) بيعة الصحابة على مواجهة قريش، وإن قتلوا فى ذلك، وقد كان عددهم ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة صحابى، (رضي الله عنهم)، وتُسمى بيعة الحديبية وهو اسم المكان، أو بيعة الشجرة لأنها كانت تحت شجرة، أو بيعة الرضوان، على الآية ١٨، ثم جاء عثمان (رضي الله عنه) سالمًا ولكن رفضت قريش السماح لهم بالعمرة، ثم جرت مفاوضات بين «سهيل بن عمرو العامرى» على أن ينصرف الرسول ومن معه فى ذلك العام، فإذا كان العام التالى سمحوا له بدخول مكة ومعه المسلمون على أن يقيموا فيها ثلاثة أيام ثم يخرجون. . فعاد المسلمون من صلح الحديبية وقلوبهم منكسرة، وفى الطريق نزلت هذه السورة الحافلة بالبشريات ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قيل هو صلح الحديبية، الذى دخل الناس بعده فى الإسلام أفواجًا، وقيل هو

(*) نزلت فى طريق العودة من الحديبية إلى المدينة.

فتح مكة، وقيل إن فتح مكة كان ثمرة صلح الحديبية، وقال (ﷺ) لأصحابه: «لقد نزلت علىّ آية هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها» رواه مسلم ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أخذ أكثر المفسرين بظاهر الآية، وقال إن الله غفر ذنوبه جميعًا[1]، السابقة والتالية، فقال البيضاوى: [ليغفر لك ربك جميع ما فرط منك مما يصح أن تُعاتب عليه] وقال المراغى: [ليغفر لك ربك ما فرط منك من الهفوات، مما يصح أن يُسمى ذنبًا بالنظر إلى مقامك الشريف، وإن كان لا يسمى ذنبًا بالنظر إلى سواك، ومن ثم قيل إن حسنات الأبرار سيئات المقربين]، وقال مخلوف ما يشبه ذلك، وأضاف: [ليغفر لك ربك ما فَرَط (بدر) من خلاف الأولى (أى خلاف ما كان الأولى والأحسن فعله) أو المراد بالغفران الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها، فلا يصدر منه ذنب؛ لأن الغفر هو الستر، والستر إما بين العبد والذنب، وهو اللائق بمقام النبوة، أو بين الذنب وعقوبته، وهو اللائق بغيره] ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ تعددت أقوال المفسرين فيها، فمنها اجتماع الحُكم مع النبوة، وقيل فى الدنيا بالرسالة وفى الآخرة بالمقام المحمود، وقيل بإعلاء شأن الإسلام وانتشاره ورفع ذكره، وقيل بأن يرضى عنه رضًا لا سخط بعده أبدًا، والأرجح هو قيامه بالرسالة الخاتمة خير قيام فى الدنيا، والمقام المحمود فى الآخرة، والله أعلم ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويُثبِّتك على صراطه المستقيم ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ فلا يغلبك غالب.

***

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حين بايعوك تحت الشجرة ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ ومن هنا قال العلماء إن الإيمان يزيد وينقص، وقال الزمخشرى

(١) رُوى عن عائشة(رضي الله عنها) أنها قالت كان رسول الله (ﷺ) إذا صلى قام حتى تتفطر قدماه، فقالت له: أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!» رواه مسلم.

والبيضاوى وغيرهما أن يزدادوا إيمانًا بالشرائع، وتحتمل الآية أن الالتزام بالطاعات، وعلى رأسها الجهاد فى سبيل الله، يقوى الإيمان، كما تُثَبِّت الصدقة الأنفس على الإيمان ـ ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ـ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لا يعلمهم إلا هو، ويعملون ما يؤمرون ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وقضى بعدله وحكمته أن يدخل ﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ بعفوه وفضله وكرمه ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ بميزانه الحق، وفى المقابل فإنه ﴿ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ الذين قالوا فى أنفسهم لن يعود محمد والمسلمون؛ لأن قريشًا ستقضى عليهم، ولذلك لم يخرجوا مع رسول الله (ﷺ) ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ ظن السوء الذى جعلهم يفضلون أهواءهم على طريق الله المستقيم ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ستعود عليهم دائرة ظنهم السئ ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ثم تكرر وتؤكد الآيات للمسلمين ولجميع من يستمعون القرآن ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لاتعرفونهم، ولكنهم يفعلون ما يأمرهم به الله، فلا تغتروا بظاهر الدنيا وظاهر أحوالها وظاهر أحوال من فيها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

***

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾

إنا أرسلناك ـ يا محمد ـ شاهدًا على أمتك، وعلى كل من بلغته رسالتك، وعلى الأمم السابقة التى قص عليك الوحى أخبارها وعلى بلاغ رسلها، فأنت، على سبيل المثال، تشهد لموسى (ﷺ) أنه بلغ الدعوة للتوحيد الخالص ولعمل الصالحات، وتبرئ سليمان (ﷺ) من الكفر الذى رماه به بنو إسرائيل، بل إنه كان ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وتبرئ عيسى (ﷺ) من زعم من قال إنه ابن الله، أو إنه إله، أو إن أمه إلهة، ومن زعم من قذف أمه البتول الطاهرة بالزنا، بل تشهد لها بأن الله طهرها واصطفاها مرتين، وأن الله تقبلها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا، وضرب بها المثل للذين آمنوا وكانت من القانتين ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بالمغفرة والجنة للمتقين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين والمشركين بنار جهنم ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعزروه تعني تنصرونه، والضمير يرجع لله سبحانه وتعالى، فالمقصود تنصرون رسوله ودينه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموا وتجلوا دينه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وتسبحوا الله صباح مساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ على الطاعة والثبات أمام قريش ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قوة الله معكم، فليس لله يد كأيدينا ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فمن نقض العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ لا يعود ضرر نقض العهد إلاّ على صاحبه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو رضا الله؛ ولذلك سُميت البيعة ببيعة الرضوان، وكل من شهدها استحق من الله بنص القرآن مقام (رضي الله عنهم).

***

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(١٤)﴾

ينبأ الله رسوله قبل رجوعه للمدنية بأن المنافقين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج معه، سيقولون له عند عودته متحججين: انشغلنا بأموالنا وأهالينا، فاستغفر لنا، والله يعلم نفاقهم، وأنهم ظنوا، وزينت لهم نفوسهم المريضة، أن قريش ستقضي على الرسول (ﷺ) ومن معه من صحابته رضوان الله عليهم، فأهلكتهم أنفسهم بظنهم السيء، وأعد الله للذين كفروا بالله ورسوله نار جهنم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وسعت رحمة الله كل شيء، فقدأبقى باب التوبة مفتوحًا لمن يريد العودة إلى ربه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن عبدوا الدنيا وفضلوها على طريق الله المستقيم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به.

***

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن

تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ الذين أقعدهم النفاق عن الخروج مع رسول الله ﴿ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أوّل المفسرون ذلك بخروج الرسول (ﷺ) إلى خيبر بعد صلحه مع مكة، فقد كانت خيبر وكر الدسائس والتأليب على الإسلام والمسلمين، وهى التى حزبت الأحزاب عليهم لاستئصالهم، وهى التى أغرت بنى قريظة على نقض الميثاق مع الرسول (ﷺ) وخيانته فى غزوة الأحزاب[1] ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وحكم الله أن مغانم خيبر لمن خرج إلى العمرة مع رسول الله ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ فسيتجرأ هؤلاء المنافقون ويكشفون عن نفاقهم ويقولون إنكم تحسدوننا! ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ثم يأمر الله رسوله ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ قل يا محمد للمتخلفين عن السير معك فى عمرة الحديبية: إن كنتم مؤمنين حقّا، فستدعون إلى قوم أصحاب شدة وقوة فى الحرب، قيل هم هوازن وثقيف يوم حنين، وقيل هم قبيلة مسيلمة الكذاب بنو حنيفة، وقيل هم الفرس والروم، وأيّا ما كانوا فمن يريد أن يثبت صدقه وعدم نفاقه، فليقاتل فى سبيل الله وليس فقط وراء غنيمة ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ القاعدة الرئيسية فى الإسلام هى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، فمن يُكرَه على الإسلام، يصبح منافقًا، يُظهر الإسلام ويُبطن رفضه، ولم يكن، وليس هناك الآن، من هو أخطر على المسلمين من المنافقين، ولذلك جاء فى التنزيل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقاعدة ثانية، هى أن أهل الكتاب الذين يهددون المسلمين ويقاتلونهم، يقاتلهم المسلمون إلى أن يستسلموا ويدفعوا الجزية، وتكون الجزية مقابل أن يدخلوا تحت حماية المسلمين، وفى عهدهم وسلطانهم، أو أن يدخلوا فى الإسلام، فيصبحوا مثل سائر المسلمين، فما معنى ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾؟ أجمع كل المفسرين أنها فى المشركين فى الجزيرة العربية؛ لم يكن فى ذلك الوقت لا قانون ولا دولة تعاقب المجرم، والآية فى الجماعة المنظمة التى تشكل خطرًا وتهديدًا وليست فى الأفراد، فإنه حتى بعد فتح مكة، بقى بها من هو

(١) وها هى إسرائيل والصهيونية العالمية تؤلبان العالم على العرب والمسلمين، وتمثلان وكر الدسائس والمؤامرات، على فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وپاكستان، وجنوب السودان، ودارفور، وأعالى النيل، تؤججان الفتنة الطائفية فى مصر، وبين السنة والشيعة، وبين العرب والفرس.

غير مسلم، وتُرك فى شأنه ما لم يهدد الإسلام والمسلمين، ولم يأمر الرسول (ﷺ) إلا بقتل بضعة نفر كان لكل منهم جرمه ضد الإسلام ورسوله[1]، وقد اجتمعت قبائل هوازن وثقيف ونضر وجشم وغيرها لقتال المسلمين بعد فتح مكة، وقيل إن المقصود بـ ﴿ يُسْلِمُونَ ﴾ هنا الاستسلام لحكم المسلمين، كما سيجىء فى آخر سورة الحجرات الآيات ١٤-١٧، وقال الزمخشرى: [﴿ يُسْلِمُونَ ﴾ ينقادون] ﴿ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ أما إذا رفضتم الخروج فى سبيل الله كما فعلتم من قبل فى عمرة الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ثم استثنت الآيات ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ليس هناك إثم لمن تخلف عن الجهاد بسبب عذر قاهر مثل أن يكون به عيب خلقى يعطله عنه، كالعمى والعرج أو المرض النازل ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ من الأصحاء القادرين فيخرج مع رسول الله (ﷺ) فى سبيل الله ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فى نار جهنم.

***

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) ﴾

رضى الله عن المؤمنين الذين بايعوا رسوله تحت شجرة الرضوان فى الحديبية على أن يطيعوا الله ورسوله، ولا يفروا إذا واجهتهم قريش بقواتها، وأنزل الله سكينته على قلوبهم، وقضى لهم ثوابًا ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ قيل هو فتح خيبر، وقيل مكة، وقيل خيبر ومكة مجتمعين، وقال سيد قطب وغيره بل هو صلح الحديبية الذى كان فاتحة الفتوح ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أكثر المفسرين على أنها خيبر، وبعضهم هوازن وثقيف، وبعضهم أن الأمر يشمل

(١) قارن دخول الرسول (ﷺ) وقواته مكة، وعدد ضحايا ذلك الفتح، مع أى غزو أو اعتداء لقوات أوروبية أو أمريكية أو إسرائيلية على دولة أو مدينة فى القرن العشرين وما بعده، وتعجب مما يقوله المستشرقون. كذلك قارن ذلك بما رواه الكتاب المقدس عن دخول المدينة ـ بدون سبب على وجه الإطلاق ـ وإبادة كل من فيها من رجال ونساء وشيوخ وأطفال حتى الحيوانات! وقارن ذلك أيضًا بدخول الصليبيين بيت المقدس واستباحتهم دماء المسلمين واليهود، حتى قالت المراجع الغربية أنهم ذبحوا ثلاثين ألف نفس، لإرضاء المسيح، والمسيح براء منهم، ومن أفعالهم ومن عبادتهم، ومن شركهم!.

مغانم من كلٍّ من قاتلوا المسلمين، وقال بعضهم صلح الحديبية ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ مغانم خيبر على قول أكثر المفسرين. وكانت غزوة خيبر فى السنة السابعة بعد الهجرة، بعد أن كان النبى (ﷺ) يأمل فى أن يؤمن به اليهود، فإن لم يؤمنوا به فيتعاونوا معه لأنهم أهل كتاب، ولكنهم كرهوا أن يكون نبى آخر الزمان عربيّا وليس من بنى إسرائيل. قال محمد الغزالى: [إن اليهود ما خدموا الوحى الذى أنزل عليهم، ولا شرفوه بمسلك نبيل، ولا حاولوا إنقاذ العرب من الوثنية التى شاعت بينهم، بل على العكس ظاهروا الوثنية وأيدوها ضد نبىّ التوحيد، وتمنوا أن يعود المسلمون إلى عبادة الأوثان، آفة اليهود أنهم جعلوا الدين قومية لهم أو شارة تميزهم عن غيرهم، وكأن الله رب إسرائيل خاصة وليس رب الناس أجمعين، ومع أن النبى العربى حاسنهم أول ما هاجر إلى المدينة، فقد بيتوا له الشر وأضمروا الغدر، فنزل قوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]]، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ قيل أيدى كفار مكة وقيل أهل خيبر، والناس تشمل ذلك وأكثر ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتكون عبرة للمؤمنين ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو طريق الإسلام ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قيل هى غنائم هوازن وثقيف التى لم تقدروا عليها فى البداية، وقيل فارس والروم، وقيل غير ذلك، والله أعلم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

***

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كفار قريش ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ لفروا منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يساندهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ نظام الله وحكمه أن النصر للأنبياء والمؤمنين، بشرط التزام المؤمنين المنهج الربانى، فيأتيهم النصر ولو بعد حين، ولا تبديل ولا تغيير لهذه السنة ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الله الذى منع الكفار من قتلكم فى الحديبية، ومنعكم من قتلهم حين ظفرتم ببعض من خرج عليكم من قريش، وقيل إن ذلك بشارة بفتح مكة دون أن تقتلوا أهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

***

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾

أهل مكة هم الذين كفروا ومنعوكم من دخول المسجد الحرام لأداء العمرة ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ والذبائح محبوسة عن أن تبلغ محل نحرها، وهو منى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ قد آمنوا بالإسلام سرًّا خوفًا من بطش قريش ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ خشية أن تقتلوهم إذا دارت معركة دون أن تعلموا أنهم مسلمون ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ ﴾ مشقة ومكروه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ دون أن تدروا ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وممن سيدخلون فى الإسلام بعد الصلح، وبعد فتح مكة ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ لو تميزوا عن كفار مكة ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بالقتل أو عذاب الاستئصال، وقال القرطبى: [قال على (رضي الله عنه) سألت النبى (ﷺ) عن هذه الآية، فقال: «كان فى أصلابهم قوم مؤمنون، فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله ـ تعالى ـ الكافرين عذابًا أليمًا»] ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ الأنفة والتكبر ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ استكبار وعصبية الجاهلية ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليقابلوا بهذه السكينة حمية جاهلية قريش ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ تعددت أقوال المفسرين فيها، فمنهم من قال إن المقصود بها بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله، التى رفض سهيل أن يكتبها على (رضي الله عنه) فى الصلح ووافقه الرسول (ﷺ) على أن يكتب باسمك اللهم، ويكتب محمد فقط، وقيل المقصود لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل الوفاء بالعهد ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من مشركى مكة، والضمير يعود على كلمة التقوى، أو عليها وعلى السكينة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

***

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾

رأى رسول الله (ﷺ) فى المنام قبل صلح الحديبية بأنه دخل وأصحابه المسجد الحرام آمنين ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ وهذا دليل على إتمام العمرة؛ فالبعض يحلق رأسه والبعض

يقصر الشعر ﴿لا تَخافُونَ﴾ من أهل مكة ﴿فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من ذلك الدخول ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قيل هو صلح الحديبية، وقيل فتح خيبر، والأول أرجح، بالإضافة لأن الثانى ترتب على الأول ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ بهدى الله ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ قال الزمخشرى: [إظهاره بالحجج والآيات] ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على هذا الوعد.

***

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ المؤمنون ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أى لهم شدة وغلظة فى مواجهة الكفار الذين يحاربونهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ولكنهم هينون لينون مع المؤمنين ـ وفى سورة المائدة وصفهم الله بأنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخفضون لهم الجناح ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٥٤] ـ ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يكثرون من الصلاة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يريدون التقرب من الله والوصول إلى رضاه ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ علاماتهم فى وجوههم من أثر السجود، قيل هى علامة الصلاة فى مكان السجود، وقيل بل أعم من ذلك، مثل السكينة والنورانية ـ فمن أراد أن يلحق بمحمد (ﷺ) والذين معه، فليعمل بمثل ما عملوا ـ ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ﴾ هذا وصفهم فى التوراة بينهم ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ ووصفهم فى الإنجيل كزرع خرجت سنابله ﴿فَآزَرَهُ﴾ قواه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ صار غليظًا قويًا ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ استقام على سيقانه، والسوق جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بقوته واستقامته وجماله ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ كلما وقع بصرهم على المؤمنين الذين صلحت قلوبهم وأعمالهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ تصديقًا لإيمانهم ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ دنيا وآخرة.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾

تبين هذه السورة جملة من آداب تعامل المسلمين، مع رسولهم، ومع بعضهم البعض، وبها حكم قتال الفئة الباغية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لا تعجلوا بقضاء أمر يرتبط بدينكم قبل أن تعرفوا ما يأمر به الله رسوله، وذلك لصحابة الرسول (ﷺ) ومن عاصره من المؤمنين، أما من جاء بعد عصر الرسالة، فعليه أن يرجع لما جاء فى القرآن ولما بينته السنة فى أمور دينه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أطيعوه فلا تعصوه ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بكل أقوالكم وأعمالكم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ فلا بد عند مخاطبة الرسول (ﷺ) من خفض الصوت والتزام الأدب؛ ولقد أمر (ﷺ) المسلمين بتوقير الكبار، فقال: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه» رواه الترمذى ﴿ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ لا تخاطبوه كما تخاطبون بعضكم البعض،

وتقولوا يا محمد، بل قولوا يارسول الله أو يا نبى الله ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ حتى لا تبطل أعمالكم وأنتم لا تشعرون[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على قلوبهم الخالصة للتقوى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ نزلت فى رجال نادوا على رسول الله (ﷺ): يا محمد يا محمد، وداوموا على ذلك حتى يخرج لهم من حجرته ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ آداب مخاطبتك وحرمات البيوت ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ولأنهم حديثو عهد بالإسلام، ويجهلون آدابه، فإن الله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

على المؤمن أن يكون كيسًا فطنًا، يتحرى الصدق والدقة فيما يقول وفيما يسمع، وألا يصدّق كل ما يقال له عن الآخرين، خاصة لو كان القائل من العصاة ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ حتى لا تؤذوا قومًا ظلمًا ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ نقلت أكثر التفاسير أن رسول الله (ﷺ) بعث إلى بنى المصطلق بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبى معيط ليجمع الصدقة، ولكنه رجع من منتصف الطريق إلى رسول الله، فقال له: إن القوم يجمعون لك لقتالك! ثم قدم وفد المصطلق فقالوا: يا رسول الله سمعنا بخبر رسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنكرمه، ولنؤدى إليه ما قبلنا من الصدقة، فعاد راجعًا وبلغنا أنه يزعم أنا خرجنا إليه لنقاتله، ووالله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ وقد ضعَّف الرازى الرواية ـ وهى فى مسند أحمد ـ وعلى أى حال فالعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لو كان الرسول يطيعكم فى كثير مما تقولونه من الأخبار غير الصحيحة، وتشيرون، بناء على ذلك،

(١) كان ثابت بن قيس بن شماس جهور الصوت، فلما نزلت الآية خشى أن يكون مقصودًا بها، فاختفى عن مجالس الرسول (ﷺ) خوفًا من كلامه له بصوته الجهورى، فافتقده الرسول (ﷺ) وسأل عنه، فأجابوه بسبب اختفائه، فنفى رسول الله (ﷺ) مخاوفه، وقال لهم: «إنه من أهل الجنة» ـ متفق عليه.

بالآراء المتسرعة المجانبة للصواب، لأصابتكم مشقة. ولكن ما علاقة أن يحبب الله الإيمان ويزينه فى قلوب المؤمنين، وجعلهم يكرهون الكفر والفسوق والعصيان بالآية السادسة ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾؟ ثم أثنى الله على أولئك المؤمنين الذين يتبعون تحذيره بقوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾؟ فكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يضع الإيمان، والتثبت من الخبر ـ الذى يأتى به الفاسق ـ فى كفة، والكفر والفسوق والعصيان فى كفة أخرى! فمن يتبينون ذلك، ويحذرون أن يصيبوا قومًا بجهالة، أطلق عليهم صاحب الفضل، العليم الحكيم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ فكم خسرت الأمة الإسلامية من قتال بعضها البعض من جراء فتن الفاسقين فيها؟ وكيف نجحت إلى هذا الحد سياسة: فرق تسد، التى اتبعتها القوى المعادية للإسلام مع المسلمين قديمًا وحديثًا[1]؟ وجاء فى الحديث «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب، ولكن فى التحريش بينهم» رواه مسلم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ولكن الله حبب الإيمان إلى قلوبكم وزينه لها، وجعلكم تكرهون الكفر والخروج عن الإيمان وعصيان الله بعدم الانقياد لشرعه، فمن استجابوا له فهم الراشدون ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذا الفضل ﴿حَكِيمٌ﴾ فى كل أموره، واهب الحكمة ومانعها.

* * *

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

إن اقتتل جماعتان من المسلمين، فعلى المسلمين أن يسعوا جهدهم للصلح بينهما ﴿فَإِن بَغَتْ﴾ فإن ظلمت إحداهما الأخرى وأبت الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ حتى ترجع إلى حكم الله ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوا

(١) ذهب الرئيس الأمريكى السابق چورچ بوش إلى كاتدرائية واشنطن بعد ثلاثة أيام من أحداث ١١/ ٩/ ٢٠١٠ ـ وكأنه يتمثل بأمريكا قيام المسيح بعد ثلاثة أيام من دفنه كما روت الأناجيل ـ وقال فى خطاب علنى: سوف نقلبهم واحدًا على الآخر! فأنظر يا أخى العزيز الصراع الدائر فى العراق بين السنة والشيعة والأكراد، وفى فلسطين بين فتح وحماس، وحركات الانشقاق فى جنوب السودان وفى دارفور، وبين العرب والفرس، وبين الدول العربية المعتدلة، والأخرى غير المعتدلة!

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ احرصوا على العدل؛ لأن الله يحب العادلين فى الحكم والقول والعمل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فى الله وفى الدين وفى الإنسانية، وجاء فى الحديث «كلكم لآدم وآدم من تراب» رواه البزار ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وكان على (رضي الله عنه) وهو خليفة المسلمين، وهو من هو فى القرب من رسول الله (ﷺ) وفى البلاء الفريد فى الإسلام يرد على أتباعه الذين يريدون تكفير من يقاتلونه طمعًا فى الدنيا وخروجًا على الحاكم الشرعى: بل هم إخواننا بغوا علينا.

قال محمد الغزالى: [رأيت معارك نزفت فيها دماء غزيرة وأعقبها خسار واسع لأن المسلمين ضعفوا عن قول الحق للمعتدى وعجزوا عن رد بغيه، فكانت النتيجة أن هانت الأمة كلها وطمع فيها أعداؤها. إن ضعف رباط الأخوة الإسلامية نذير شر، وهو ذريعة إلى تدخل غير المسلمين كى يستغلوا الأوضاع المائلة لمصالحهم الخاصة].

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

تبين الآيتان بعضًا من الآداب الإسلامية: يا أيها المؤمنون، لا يسخر بعضكم من بعض، فأنتم لا تدرون من منكم خير عند الله من الآخر، يا أيها المؤمنون ﴿لَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ولا يعيب بعضكم بعضًا، لا تصريحًا ولا تلميحًا، ولا حتى بالإشارة وما إلى ذلك ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ولا تُعايروا بعضكم بعضًا بالألقاب التى تكرهونها ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بئس أن تستحقوا لقب الفسق بعد أن آمنتم ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ من لم يتب عن كل ذلك، فأولئك قد ظلموا أنفسهم وغيرهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تجنبوا ظن السوء بالمؤمنين دون دليل؛ إن القليل من الظن السيئ إثم يستوجب العقوبة، فما لكم بسوء الظن كله؟ ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ لا تتبعوا عورات المسلمين ولا تتنصتوا عليهم، وجاء فى الحديث «من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى عقر داره» رواه أبو داود ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ قال رسول الله (ﷺ): «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل:

أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» رواه مسلم، وبهته أى افتريت عليه الكذب ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أى كما جُبلتم وخُلقتم على كراهة ذلك، فاكرهوا الغيبة فإنها مماثلة له ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ خافوا ربكم ولا تسترسلوا فى مجالسكم بما يكره الناس وتوبوا إلى الله حتى يتوب عليكم ويرحمكم ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣)﴾

يأيها الناس إنكم جميعًا من أصل واحد، آدم وحواء، فأنتم جميعًا إخوان متساوون، وجعلناكم شعوبًا مختلفة، وقبائل مختلفة، وجاء منها دولٌ مختلفة، لا لتتحاربوا وتتقاتلوا، لا لكى يستغل بعضكم بعضًا ولا يسلبه أرضه وعمله، ولا ليتفاخر بعضكم على بعض، ولكن لتتعارفوا وتتعاونوا على البر والتقوى، وليكمل بعضكم بعضًا، واعلموا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ليس أغناكم ولا أقواكم، وليس هناك شعب مختار وشعوب مستبعدة، وليس هناك شعب خلق الله الدنيا له، وبقية الشعوب مجرد حشو عديمة الحقوق، وليس هناك عرق أعلى وأعراق أدنى، وليس هناك حمل رجل أبيض(١)، يزعمه من يريد استباحة الآخر: أرضه وعمله وماله، وإذا لزم الأمر ثقافته ونفسه، وليس هناك بقاء الأصلح على حساب الأضعف، بل من يظن نفسه قويًا فليساعد الضعيف، ومن يظن نفسه ذكيًا فليساعد الأقل ذكاءً، ومن يظن نفسه ماهرًا فليساعد الأقل مهارة، فالكل أبناء ذكر وأنثى، وأكرم الكل أتقاهم، وجاء «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى

(١) كثيرًا ما بررت أوروبا ومن هاجر منها لأمريكا حملاتها على الشعوب واستعمارها بأن عليها حمل أو رسالة الرجل الأبيض لنشر حضارته المسيحية فى العالم، وأحيانًا أبهمت القول فى عبارة قيم الرَجل الأبيض، وأحيانا جهرت بمصطلح الـ Christianity, Civilization, Commerce: Three C'S وأحيانًا أخرى، خاصة بعد نشر داروين كتابه الأشهر، قالت إن على العرق الأعلى! أن يتحمل مسئوليته عن العرق الأدنى! وجمعت فى بعض الأحيان كل ذلك: الكاثوليك أو البروتستانت هم شعب الله المختار ـ الرجل الأبيض أعلى عرقيًا من بقية العالم ـ البقاء للأصلح ـ على الرجل الأبيض الكاثوليكى أو البروتستانتى حمل مسئوليته لنشر قيمه الأعلى (اليهودية/ المسيحية) فى العالم ـ لا حرج فى اختفاء بعض الأعراق الأدنى. شكلت تلك الأفكار السامة القاعدة العقائدية لحملات سلب ونهب شعوب العالم، وإذا لزم استئصالها، التى قامت بها أوروبا، وتحاول اللحاق بها الآن الدولة اليهودية إسرائيل.

على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» رواه أحمد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بما تعملون، وبما عليكم عمله.

* * *

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ رُوى أنها نزلت فى قوم أظهروا الإسلام طمعًا فى الغنائم ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ بمعنى استسلمنا وانقدنا ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فقلوبكم خاوية من الإيمان، وإلا ما كنتم منتم على الرسول بإيمانكم، كما سيجىء ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فتؤمنوا وتعملوا الصالحات ﴿لا يَلِتْكُم﴾ لاينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ما سبق برحمته. والمؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا إيمانهم بالعمل ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ثم لم يشكوا فى الله ولا فى رسوله، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فصدَّقوا إيمانهم ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أتخبرون الله بدينكم عندما تقولون آمنا، والله لا يخفى عليه شىء ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وكأن إسلامهم ينفعك وكفرهم يضرك ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ الحقيقة أن الله هو الذى تفضل عليكم ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ادعائكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) ﴾

﴿ قَ ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ فهو كلام الله المجيد، والمجد هوالسعة فى الكرم، فكل من طلب العطاء الواسع وجده فى القرآن ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ أهل مكة والعرب ﴿ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو محمد (ﷺ) ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ يا للعجب من محمد الذى يقول لنا إننا إذا متنا وصرنا ترابًا سنبعث من قبورنا! هذا رجوع إلى الحياة مستحيل ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسامهم بعد الموت ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ لكل ما حدث وما سيحدث، لا يضيع منه شيء، بل كفروا بالحق لما جاء به محمد لهم ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ملتبس عليهم مضطرب؛ لأنهم يفضلون الدنيا ومتعها الزائفة الزائلة.

* * *

(*) إلا الآية ٣٨ فمدنية.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ بلا أعمدة ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالكواكب والنجوم والشمس والقمر ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ ما بها من شقوق ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ من كل الأصناف حسن المنظر ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ ليبصر ويتذكر قدرة الله كل ﴿ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ رجّاع إلى ربه ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ كثير النفع والبركات ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾ حدائق ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ حبوب الزرع التى تحصد ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ والنخل طوال ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ لها ثمر متراكم بعضه فوق بعض ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ وبذلك المطر ﴿ أَحْيَيْنَا بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أرضًا جدباء لا زرع فيها ولا ماء ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ كذلك يخرج الله الأموات من القبور ويبعث فيهم الحياة، كما يبعث الحياة فى الأرض الميتة.

* * *

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾

كذبت أقوام كثيرة قبل قريش رسلها، منها قوم نوح، وأصحاب ﴿ الرَّسِّ ﴾ البئر، وثمود، وعاد، و ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ فقد كذب فرعون وبطانته وجنوده، كذبوا موسى (عليه السلام)، وقوم لوط، وأصحاب ﴿ الأَيْكَةِ ﴾ وهى الشجر الكثيف الملتف، وقيل شجر الدوم، والمقصود قوم شعيب ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ قوم تبع الحميرىّ ملك اليمن ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ كل هؤلاء كذبوا رسلهم فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ أفعجزنا عن بدء الخلق حتى نعجز عن إعادته ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بل هم فى شبهة وخلط من البعث وإحياء الموتى، زينته لهم أنفسهم المحبة للذات الدنيا، الرافضة للحساب يوم الحساب، ولموازين الله الحق فى الدنيا والآخرة.

* * *

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾

تبين الآيات أن خالق الإنسان يعلم ما يدور فى صدره وتوسوس به نفسه ـ ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] ـ وهو أقرب إليه من حبل الوريد الذى فى عنقه والذى فيه حياته، ما يلفظ الإنسان من قول إلا سجله عليه رقيب يُعتد بتسجيله، فلا خطأ ولا تزوير، وعندما تنزل بالإنسان شدة الموت التى تذهب بالعقل، جاء الحق الذى كان يزوغ منه، ثم ينفخ الملك فى ﴿ الصُّورِ ﴾ البوق إيذانًا لبعث الموتى ليوم الوعيد ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ ﴾ من يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على كل ما قدمت ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ ﴾ غفلة عن تذكر هذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ حجاب غفلتك عن هذا اليوم ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قوى نافذ تدرك به الحق الذى تغافلت عنه.

***

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾

تصور الآيات بعض مشاهد البعث والحساب، وهى من أمور الغيب التى لا يمكن معرفتها إلا بنص قرآنى أو حديث صحيح، وقرن تعنى جمع، أو صاحب، أو لازم، وقد تكررت فى القرآن بضع مرات فى [النساء: ٣٨]، [الصافات: ٥١]، ٢١٩ [فصلت: ٢٥]، [الزخرف: ٣٦ـ٣٨]، وهنا فى [ق: ٢٣ـ٢٧]، وكلها تتحدث عن قرين السوء، وهنا شهد القرين عن الإنسان الكفار العنيد ﴿ عَتِيدٌ ﴾ المهيأ والحاضر لجهنم، ثم جاء الأمر الإلهى ﴿ أَلْقِيَا ﴾ فى جهنم كل كفار عنيد، قال المفسرون الأمر للسائق والشهيد، وقال الزمخشرى وغيره أنها يجوز أن تكون للتأكيد بالتكرار، كأنه قيل: ألق ألق ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ فهذا الكفّار العنيد دائم لمنع الخير، يتعدى حدود الله وحقوق الناس، شكاك فى الله ورسله،

واتخذ مع الله شريكا ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ ثم قال القرين ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ فهنا القرين ينفى عن نفسه أنه قرين السوء، فهل هذا القرين هو نفسه القرين الأول الذى قال ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أم أنه قرين آخر؟ وهل القول الثانى للقرين ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ جاء بعد قول ورد للنفس الكافرة لم يظهره السياق، ولذلك جاءت الآية التالية ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أم أنه استئناف لكلام القرين بعد الأمر الإلهى ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾؟ وقد أوَّل بعض المفسرين أن القرين هو الملاك الموكل بالإنسان، وقال بعض آخر بل هو الشيطان الذى أضل المرء، والله أعلم. قال تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ فقد سبق أن ﴿ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ حين أرسلت الرسل وأنزلت الكتب التى تنذر الكافرين بالعذاب على عصيان الله ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ ما يبدل وعيدى بعذاب الكافرين ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ لأنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا، وأنا أعدل الحاكمين وأصدق القائلين.

***

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾ يقول تعالى لجهنم وهو أعلم: هل امتلأت بالكفار والمشركين والمنافقين الظالمين؟ ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ حفظنا الله من جهنم، ومن كل من يقول هل من مزيد من ظلم النفس والآخرين فى الحياة الدنيا ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وقربت الجنة ودنت من المتقين ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ هذا وعد الله لكل رجاع إلى الله بالتوبة والطاعة ﴿ حَفِيظٍ ﴾ على عهده مع الله ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ من خاف أن يغضب ربه فى السر والعلن بعد أن أيقن بيوم الحساب، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله بالغيب ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ وجاء يوم الحساب بقلب مخلص مقبل على الله، ويؤذن مؤذن ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ فى نعيم الجنة ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ كل ما يطلبونه ويتمنونه ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ولدينا ما هو أكثر، ما لا عيْن رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

***

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾

وكم أهلكنا قبلهم من قوم من الأمم السابقة رغم أنهم كانوا ﴿ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ قوةً وجبروتًا ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ فبحثوا في البلاد ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ هل من مهرب من العذاب؟ إن في هذه القصص ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ اعتبار ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ يعقل به ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ حين تتلى عليه آيات الله ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ شاهد واع للبينات الإلهية.

* * *

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من أيام الله وليست من أيامنا هذه، والله أعلم بحقيقتها ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ ما مسنا من تعب، فاصبر يا محمد على ما يقوله المشركون، وسبح بحمد ربك ليل نهار، وداوم على السجود، في الصلاة وخارج الصلاة، بقلبك وبخواطرك، وبجسدك، وبأقوالك وبأعمالك.

* * *

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥) ﴾

وانتظر يا محمد، ومن يبلغه القرآن يوم البعث، يوم تستمعون نداء لا يُرد لقربه، يوم تسمعون صيحة الحق ببعثكم للحساب، فالله هو المحي وهو المميت، وإليه المصير ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ يوم تتصدع الأرض وتنشق عنهم فيخرجون مسرعين ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هذا الحشر أمر هين على الله، وكل أمر هو هين على من أمره كن فيكون ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿ وَمَا أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ بمتسلط تقهرهم على الإيمان ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾

يقسم رب العالمين بـ ﴿ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ الرياح التى تُطَيِّر السحاب وغيره تطييرًا ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ فالسحاب الذى يحمل ثقلاً كبيرًا من الماء، أو الحوامل وما يحملن من أبناء ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ ربما هى السحب أيضًا، وربما النجوم والكواكب والأجرام السماوية، وربما ما يجرى فى البحر أو على الأرض، نقل الطبرى والزمخشرى والشوكانى وغيرهم عن على (رضي الله عنه) أنه قال: ﴿ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ الريح، و﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ السحاب، و﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ السفن، و﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة، والله أعلم ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ فالمقسمات الأمطار، أو الأرزاق ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ من بعث الموتى من القبور للحساب ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ جزاء أعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرّا فشر ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لحاصل ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ذات الطرق التى تجرى فيها النجوم والكواكب، وغيرها مما لا نعلمه ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ إن كلامكم لمتناقض، مرة تقولون إن القرآن

سحر، ومرة شعر، ومرة أساطير الأولين ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ينصرف عن كلام الله من صرفه التكبر والهوى ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ لُعن الكذابون المختلقون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهالة تغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ يقولون متحدين ومستهزئين: متى يوم الدين؟ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يعذبون ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حين كنتم تقولون متى يوم القيامة والحساب، وتتعجلون وقوعه.

***

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أطاعوا الله وخافوا عصيانه فاستقاموا كما أراد ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ينهلون من نعم الله عليهم؛ لأنهم ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ الإيمان والعمل ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ لا ينامون من الليل إلاّ القليل، فهم في صلاة ودعاء وذكر ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في أواخر الليل قبل الفجر يستغفرون ربهم، وجاء في الحديث «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤاله؟ حتى يطلع الفجر» رواه مسلم ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فهم يعرفون أن المال مال الله، وهم مستخلفون فيه، وللسائل والمحروم حق فيه ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ لا يغفلون عن آيات الله في أرضه؛ لأنهم من أهل اليقين بالله ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ إن النفس البشرية والجسد البشري حافلان بآيات الله، بدءًا من أطوارها من نطفة إلى خلق مكتمل، إلى تنوعها وتعددها واختلافها، إلى الأجهزة التي تعمل داخل الإنسان في دقة متناهية دون أن يعلم عنها شيئًا، إلى عجائب مخ الإنسان وكيف يعمل، إلى إنجازات البشر الرائعة، وسقطاتهم القاتلة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ هل المقصود أن رزق الله من السماء؟ مسجل في اللوح المحفوظ؟ أم المقصود أن الشمس هي مصدر كل طاقة وكل رزق على الأرض؟ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أقسم برب السماء والأرض إن هذا القرآن، والموت والنشور للحساب حق، مثل قدرتكم على النطق والجدال.

***

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٣٠)﴾

هل علمت يا محمد، ومن بلغه القرآن، ما حدث بين إبراهيم وضيوفه المكرمين؟ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ فأجاب إبراهيم ﴿سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ غير معروفين ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فذهب إلى أهل بيته وطلب منهم إحضار عجل مشوى سمين ليقدمه لضيوفه ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا، فلاحظ أن أيديهم لا تمتد إليه ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وتملكه الخوف من عدم أكلهم، هل يضمرون له الشر لذلك لا يأكلون طعامه؟ فأجابوه ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ طمئنوه وبشروه بأن امرأته ستلد غلامًا يصبح عليمًا، فسمعت سارة زوجة إبراهيم البشرى فجاءت ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحة تعجب ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فربتت على وجهها تعجبًا ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أألد وأنا عجوز وعاقر؟! قالت الملائكة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ هذا حكم الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

❊ ❊ ❊